المحاضة العاشرة: تودوروف والأنواع الأدبية

مقدمة

يُعدّ تزفيتان تودوروف (Tzvetan Todorov) أحد أبرز النقّاد البنيويين في القرن العشرين، وقد أسهم إسهامًا جوهريًا في بلورة مفهوم النوع الأدبي ضمن إطار التحليل البنيوي للنصوص، فبينما نظر النقاد الكلاسيكيون إلى الأنواع الأدبية بوصفها قوالب ثابتة، تعامل تودوروف معها باعتبارها أنساقًا لغوية ووظائف تواصلية، تتغير بتغير أنظمة الخطاب وسياقات الإنتاج الأدبي.

لقد أحدث تودوروف ثورة هادئة في دراسة الأدب حين انتقل بها من التصنيف التقليدي (الملحمة، الشعر، المسرح) إلى التحليل العلمي لبنية النص ووظيفته، وتُعد دراساته في نظرية الأدب ومدخل إلى الأدب العجائبي ومقولات السرد الأدبي من المراجع الأساسية لفهم العلاقة بين النوع والبنية والخطاب.

أولًا: لمحة عن تودوروف ومسيرته الفكرية

وُلد تودوروف سنة 1939 في بلغاريا، وهاجر إلى فرنسا في الستينيات، حيث تأثر بالمدرسة البنيوية الفرنسية (رولان بارت، جيرار جينيت، غريماس)، اشتغل في البداية على اللسانيات البنيوية، ثم انتقل إلى تحليل الخطاب الأدبي.

من أهم كتبه:

1. مدخل إلى الأدب العجائبي(Introduction à la littérature fantastique, 1970)
2. مقولات السرد الأدبي(Grammaire du Décaméron, 1969)
3. رمزية الخطاب
4. شعرية النثر
5. نظرية الأنواع الأدبية(Théorie des genres littéraires)

وقد سعى تودوروف إلى تأسيس ما يسميه بـ علم الأدب(la poétique) ، أي علم يدرس القوانين العامة التي تحكم إنتاج النصوص الأدبية وفهمها.

ثانيًا: مفهوم النوع الأدبي عند تودوروف

.1تعريفه للنوع الأدبي

يعرّف تودوروف النوع الأدبي بأنه:"نظام من القواعد يوجّه إنتاج النصوص وتلقيها، ويحدد علاقة النص بنوعه وبالأنواع الأخرى.، بمعنى أن النوع ليس مجرد تصنيف خارجي (كما في الأدب الكلاسيكي)، بل هو آلية داخلية تساهم في تشكيل بنية النص ومعناه، فالنوع عنده نسق لغوي ثقافي، يُبنى عبر التاريخ ويُستعمل ضمن المجتمع الأدبي بوصفه عقدًا تواصليًا بين الكاتب والقارئ.

.2تودوروف ضد النظرة الجوهرية للنوع:

رفض تودوروف الفكرة القديمة التي ترى الأنواع الأدبية كيانات مغلقة وثابتة، فالنوع عنده ظاهرة دينامية متحركة تتطور بتطور الممارسات الأدبية، يقول:"الأنواع ليست أصنافًا في الطبيعة، بل هي منتجات ثقافية".، أي أن الحدود بين الأنواع نسبية، وأن النصوص في الواقع تميل إلى الاختلاط والتداخل (ما يسميه "تعدد الأنواع" أو.(hétérogénéité

.3العلاقة بين النص والنوع

يرى تودوروف أن:كل نص ينتمي إلى نوعٍ أدبيٍّ معين، لكنه في الوقت نفسه يساهم في تغييره.، فالنوع هو بمثابة قانون ضمني، والنص هو تحقّق فردي لهذا القانون.

مثال توضيحي:

عندما يكتب كاتب رواية بوليسية، فإنه يستخدم قوانين النوع (وجود جريمة، تحقيق، نهاية منطقية) لكن إذا غيّر في هذه القواعد أو كسَرها (كأن يجعل المجرم مجهولًا إلى النهاية)، فإن نوع الرواية البوليسية نفسه يتطوّر.

ثالثًا: مقومات نظرية الأنواع عند تودوروف

.1البعد البنيوي

النوع يُدرس من خلال بنية النصوص لا من خلال موضوعاتها، أي أن النقاد يجب أن يبحثوا في "كيفية بناء النص" لا "فيما يتحدث عنه"، لذلك اقترح تودوروف تحليل الأنواع على مستوى:

1. البنية السردية (الأحداث، الشخصيات، الزمان، المكان)
2. الخطاب (الأسلوب، الصيغة، التناص)
3. الوظيفة التواصلية (علاقة النص بالقارئ)

.2البعد التاريخي

رغم انتمائه إلى البنيوية، لم يُلغِ تودوروف التاريخ، فهو يرى أن الأنواع الأدبية تتغير عبر الزمن لأنها نتاج تفاعل اجتماعي وثقافي، فالنوع ليس بنية أبدية بل ظاهرة تاريخية متجددة.

.3البعد التداولي (التواصلي)

النوع عند تودوروف يشكّل عقدًا بين المؤلف والقارئ:

1. المؤلف يكتب وفق توقعات النوع.
2. القارئ يقرأ وفق توقعات مسبقة حول هذا النوع.

وهكذا يصبح النوع نظامًا من "الانتظارات" (كما سيطوره لاحقًا ياوس في نظرية التلقي)

رابعًا: تصنيف تودوروف للأنواع الأدبية

في كتابه مقولات السرد الأدبي ومدخل إلى الأدب العجائبي، وضع تودوروف تصنيفات سردية ووظيفية للأنواع، من أبرزها:

.1الأنواع الكبرى:

- النوع السردي (الرواية، الحكاية، الأسطورة(...

- النوع الشعري
- النوع المسرحي

لكنه تجاوز هذا التقسيم التقليدي نحو تصنيف أكثر وظيفية.

.2تصنيف الأنواع السردية عند تودوروف

من خلال تحليله لـ الديكاميرون والأدب العجائبي، ميّز تودوروف بين ثلاثة أنماط سردية أساسية:

أ. **الأدب الغرائبي(le fantastique)** ،حيث يقع التردد بين ما هو طبيعي وما هو خارق للطبيعة. مثال: المسخ لكافكا – القارئ لا يعرف هل التحول واقعي أم حلم.

ب. **الأدب العجيب(le merveilleux)** حيث تُقبل الظواهر الخارقة دون تردد، مثال: القصص الأسطورية والحكايات الخرافية (ألف ليلة وليلة.(

ج. **الأدب الواقعي(l'étrange)** ، حيث تُفسّر الظواهر الغامضة تفسيرًا طبيعيًا في النهاية.، مثال: الروايات البوليسية.

هذا التقسيم لا يقوم على الموضوع، بل على علاقة النص بالواقع وبالخيال، أي على طريقة بناء المعنى وتلقيه.

خامسًا: تودوروف والنقد المقارن للأنواع

يرى تودوروف أن كل نوع أدبي يمثل نظامًا دلاليًا يتفاعل مع الأنواع الأخرى داخل ما يسميه بـ المنظومة الأدبية.(le système des genres) ، فلا يمكن فهم نوعٍ إلا من خلال علاقاته بالأنواع المجاورة. مثلاً:

- تطور الرواية الواقعية جاء كردّ فعل على الملحمة.
- تطور القصة القصيرة ارتبط بظهور الصحافة الحديثة.
- ظهور الرواية الجديدة في القرن العشرين جاء من كسر قواعد الرواية الكلاسيكية.

الخاتمة

إنّ نظرية تودوروف في الأنواع الأدبية تُعدّ محطة أساسية في مسار النقد الحديث لأنها:

- ✓ نقلت مفهوم النوع من الجمود إلى الحركة.
- ✓ جمعت بين البنية والتاريخ والتلقي.
- ✓ جعلت النوع نظامًا تواصليًا لا تصنيفًا جاهزًا.
- ✓ لقد فتح تودوروف أمام النقد الأدبي أفقًا جديدًا يرى الأدب لا ككائنٍ ميتٍ في متحف الأنواع، بل ككائنٍ حيٍّ يتجدد مع كل نصٍّ يُكتب ويُقرأ.